العلامة بين إحالاتها التقريرية وأبعادها التأويلية.

د. أحمد طيبي

جامعة سعيدة.

ملخّـــــص

معلومٌ أنّ العلامة لا يمكنها أنْ تتوقّف عند إحالةٍ واحدةٍ تكون **تقْريراً** لمعرفةٍ صافيّةٍ معطاةٍ بشكْـــلٍ نهائيٍّ تعكِس حالةً أوليّةً للإدْراك مرتبطـــةً بتلْبية حاجاتٍ حياتيّةٍ أوّلية يتطلّبهـــا الاستِمرار في الحياة (دلالة تقريرية)، بلْ هي سلسلةٌ من الإحالات يقود بعضُهـــا إلى بعضٍ ضمْن حركةٍ **تأويليّةٍ** طويلةٍ تتجاوز النّسْخة المادّية والوظيفي والاستعمالي، قدْ لا تنتهـــي نظريّاً عند نقطةٍ دلاليةٍ بعيْنها (لا ناهئيّةالسّميوزيس)، إلاّ أنّ المنْطق السّياقـــي التّداولي الخاص الذي تحيَّن ضِمنـــه وفْق مُقتضيات الحاجات الإنسانيّة يقود **الفِعل التّأويلي** إلى التّوقُّـــف لحظتَها لانتِقاء دلالةٍ نهائيّةٍ والاحْتِفاء بها وتفْضيلها على جميع الدَّلالات الأخْرى (مؤوِّل نهائي).

إنّ الوَعي بهذه الإحالة الثّانية في العلامة التي يمثّلُها " التّأويل " باعتبارها نشاطـــاً معرفيّاً بالغ الأهميّة والخُصوصيـــة، هو بحقٍ إدراكٌ لأهمّيتها في إضاءة جوانب العمل الأدبيوجعْـــل فعل القراءة تنقيبـــاً مستمرّاً عنْ الأشكال الدّلالية الضّمنية المتَخفّية وراء الدّلالات التّقريرية المتحقّقة مباشـــرةً،بُغية فهمٍ أفضلَ للتُّراث الإنساني قديمه وحديثه، منْ خلال إعادة النَّظـــر في طريقة التَّعاطي مع قَضايا المعْنى ورصْد أبعادِهوغاياتِهوسُبل تَداوُله وتَلقّيـــه.

المـــــقال

إذا كانت العلامة، في تعريفها البسيط الذي تبنته الفلسفات القديمة والحديثة على السّواء،هي كلّ شيءٍ أوْ حدثٍ يحيل على شيءٍ ما أوْ حدثٍ ما، فهذا يعني أنّها الأداة والوسيلة الرّاقية التي اتّخذها الإنسان، الكائن الرّمزي [1]الوحيـــد في هذا الكون، لصياغة تجربته الإنسانية صياغةً متطوّرةً تتعدّى المعْطى المادّي للأشياء وتتجاوز إكراهات حضوره الفعلي في الزّمان والمكـــان.[2]

لقد مكّنه اكتشافه العلامي التّرميزي الجديد هذا من التّعامل مع عالمٍ آخر يختلف جذريّاً عن عالمه المادّي المعهود الذي ألفه وعاش ردحاً من الزّمن داخل بوتقته الجامدة المتعددة والمتداخلة التي لا تستطيع مجهودات الإنسان الإدراكية استيعابها والإحاطة بها في كلّ نسخها من خلال تجليهاالمباشر،عالمٌ نشِـــطٌ يعجّ بالحركة، يكره التّوقف عند نقطةٍ بعينها. فبفضل هذا السلوك العلامي التّرميزي أصبح بمقـــدور الإنسان أن يستدعـــي الموجودات والكائنات والأشياء الغائرة في الزّمان والمكـــان ويستحضرها أمامه من خلال علامـــات تحلّ محلّها فتنوب عنها وتعوّضها وتختصرها في نماذج وبنيات عامة، ذلك أنه " كلما ازداد النشاط الرمزي تراجع الواقع " كما يقول كاسيرر[3]،بل مكّنه هذا الاختراع المهمّ في حياته من الإشارة إلى عوالم خفيّة ترتبط بالخيال أكثر من ارتباطها بالواقع الذي يعرفـــه، حتى أنّها أضحتْ مع تداول الأيام جزءاً من ثقافته التي تؤثّث عالمـــه.

إنّ سيطرة الإنسان وبسْطه سلطانه على الوجود المادّيالجافّ الذي لا يحيل سوى علـــى نفسه، بل وجعله التّجربة الإنسانية في كلّيتها تحضر أمامه،لم يكن ليتحقّق له بهذه السّهولة لولا صوْغه لهذا الزّخم التّجريدي المتكوّن من العلامات والرّموز، وبواسطته تمكّن في الأخير من التّحليق بعيداً عن إكراهات الواقع وإرغامات الطبيعة كلّها بمختلف تجلّياتهـــا وأشكالهـــــا.

فليست إذنْ حالة الوعي هذه التي بلغها الإنسان في صياغته للسّلوك الإنساني عامّة بكائناته وأشيائه وأهوائه ورغباتـــهوقناعاته وأحلامه وطقوسه ومعتقدات وتجاربه، والتيقادتْه في النّهايـــة، عنْ طريق التّرميز واستخدام العلامات، إلى بناء عوالم من المفاهيم المتحرِّرة التي لا تأخذ من الوجود المادّي والتّجارب المباشرة اللّصيقة بالزّمان والمكان غير المجرّد والعامّ المِطْواع القابل للتّكيُّف

والتّشكُّل المتجدّد مع كلّ واقعةٍ جديدة، سوى ردّة فعل عنْ شعورٍ بالاختناق وإحساس بالضّيق والضّغط تجاه طبيعةٍ هوجاء صاخبةٍ لا ترحم يريد أن ينفصل عنها ويتملّص من عنفها ويدفع بذاته إلى الارتماء في أحضان الأشكال الرّمزية.[4]

إنّ ذوبان الإنسان وتماهيه في الأشكال الرّمزية، بهذه الكيفية، لم يكن إجراءً مجانياً مجرّداً من أيِّ معنى، فالعلامات بالنّسبة له هي أداته المركزية في إنتاج الفكر وليست فقط أداة لتبليغه كما جاء عن " بيوسنس " في تعريفة للعلامة عندما وصفها بأنّها (أداة يستخدمها الإنسان من أجل تبليغ حالة وعي إلى كائن إنساني آخر) ، فلا يمكنه أن يعِيَ ويفكر مفصولا عن العلامات ، فوجود المعنى رهين بوجود العلامات، والعلامات، في الأخير، هـــي وحدها أداتـــه إلى إنتاج الدلالات وتداولهـــا واستهلاكها. يقول إيكو : « فلا يمكن الحديث عن العلامة إلا باعتبارها أداتنا الرئيسية، إن لم تكن الوحيدة لتنظيم التجربة الإنسانية.»[5]

ومن هذه الزاوية يجب التعامل مع " العلامة " في ارتباطها بالممارسة الإنسانية وارتباط الممارسة الإنسانية بها، فوجود هذا لوجود ذاك، وإنّ أيّ بحث في التّجلّيات الممكنة للمعنى التي تفضي بها العلامات هو بحث، في الواقع، في أساس النّشاط الإنســـاني.[6]

ولما كانت السميائيات نشاطاً معرفياًيسائل المعنى ويبحث شروط إنتاجه وأشكال تجليه وكيفية تداوله ، فإنّ مجالها التّجربة الإنسانية ، فهي مُنطلقها وهدفها في الآن ذاته ، إنها بحث فيالسّلوك الإنساني بوصفه نشاطا دالاً . فكلّ « مظاهر اليومي للإنسان تشكّل موضوعا للسيميائيات ...فالضحك والبكاء والفرح واللباس وطريقة استقبال الضيوف وإشارات المرور والطقوس الاجتماعية والأشياء التي نتداولها فيما بيننا، وكذلك النصوص الأدبية والأعمال الفنية، كلها علامات [دالة تنتمي إلى التجربة الإنسانية]نستند إليها في التواصل مع محيطنا».[7]فالدّلالة على هذا الحال " مفهوم مركزي ينتظم حوله النّشاط السّميائي في مجمله " كما يقول جريماص.[8]

والحاصل أنّ فعل إنتاج الدّلالة ليس معطى جاهزا يوجد في الأشياء خارج الفعل الإنساني ، وإنّما تقتضيكل واقعة ، في سبيل خوضها غمار توليد المعنى ، وجود مسار تدليلي يقود بعضه إلى بعض ضمن سلسلة من الإحالات داخل هيكل العلامة ذاتها ، تشكله عناصرها الداخلية الثّلاثة التي توكل لها مهمّة محافظتها على وجود العلامة واستمراريتها دائماً ؛ إنّ هذاالمسار التّدليليهوذات ما يسميـــــــــه تشارلز ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce(1842ــ 1914م)بـــ (السميوزيـــسSemiosis) التي يريد بها تلك « السيرورة التي يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة».[9]أمّا العناصر الرّئيسة المشكّلة للهيكل الدّاخلي للعلامة التي يجب ألا يغيب أحدها وإلاّ أدّىذلك إلى تخريبنائهاوكبحها عن إنتاج الدلالةهي كما يلي : [10]

1-**ماثـــول** (représentation): أداة للتّمثيل تنوب عن شيء ما وهذا الشيء هو موضوعها ، يتعلق الأمر بمتوالية صوتية ، في حالة اللّسان الطّبيعي ، يستعان بها كتمثيل رمزي متعارف عليه عند مجموعة لغوية بعينها من أجل استحضار عالم مـــــادي غائب في الزّمان والمكان ، وقد يتعلّق بمادةأخرى للتّمثيل . ومن ثم فالماثول، بهذا الاعتبار ، هو نقطة الانطلاق فى عمليـــــة السميوزيسالتّدليلية .

2- **موضوع** (objet) : شيء ما واقعي أو مُتخيَّل موضوع للتّمثيل يُستند إليه في إنتاج الصـــورالذّهنية ، يشكل أساس المعرفة ، يقوم (الماثول) بالكشف عنه عبر الإحالة إليه.

3- **مُـــؤوِّل**(Interprétant) : العالم المفهومـــيالفكري التجريدي الذي يُستغنى بواسطتـــه عن الوقائع ويستعـــاض عنها بنمـــوذج تُحيّن عبره كل التجارب المشابهـــة ، يشتغل كأداة واصلـــة بين " الموضوع "و " الماثول " مبرِّرةللعلاقة الرّابطة بينهما ، يُعتمد عليه ، بصفته أداة التّوســـط الإلزامي ، في إحالة " الماثول " إلى " الموضوع "ضمن السّيرورة التي سمّاها بيرس " السيميوزيس " ، فهذا هو نوع العمل المنوط بالمؤول وهذه هي وظيفته داخل العلامة . وبإمكان الشّكل التّالي أن يمثل للتّرابط الوثيق الذي يجمع بين العناصر الثّلاثة المشكّلة لكنه العلامـــة :

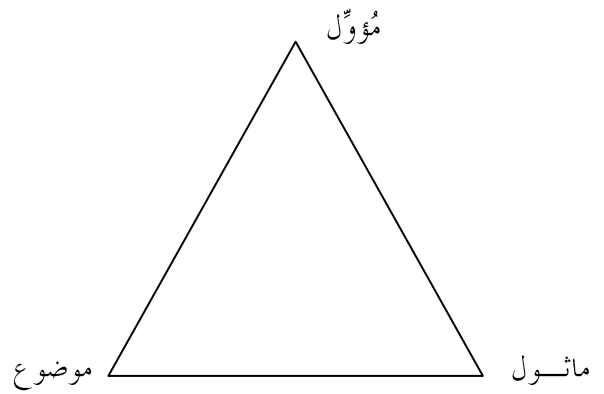

العلامة

وعليه ، فإنّ الفعل التّدليلي (السميوزيس) ، كما هو موضّح من خلال الشّكل أعلاه ، فعلٌ ثلاثي الأبعاد قائمٌ على حضور مكوّنات العلامة ثلاثتها (ماثول وموضوع ومؤول) بحيث إنّ غياب أحدها يؤدي دون شكّ إلى تحجيم إحالتها الكاملة الصّحيحة وحينها لا يمكن الحديث عن تجربة فكرية أبداً .

لذلك كانت المعرفة النّاتجة عن الإحالـــــة الثّنائية المباشرة في مثل إحالة (ماثول على موضوع) معرفةً مُفرغةً من أيّ فكر، بل هي معرفة قاصرة كونها غير قادرة على التّحول إلى معرفـــة عامة ، وبالتّالي فهي قابلةٌ للزوال في أيّ لحظةٍ تنتفي فيها الأسباب التي دفعت بها إلى الوجـــود. في مقابـــل ذلك، وعندمـــا تَسْتكمل الإحالة عناصرهـــا الثّلاثة، نكون أمام حالـــة تجريد لواقعة لباسهـــا الفكر والمعرفة قابلة للتّعميم بتجاوزها النّسخة المادية ، إلى استيعابها كقوانين من خلال نموذج عام تُستحضَر عبره كل الوقائع المشابهة كيفما كانتْ الحالات التي تحضر بها إلى الواقـــع .

وبذلك يتّضح أن (السميوزيس)، بما هـــي سيرورة تأويلية، تمثّل جوهر السميوطيقا كما تصوّرها بيرس على الأقلّ، ذلك أنّ الذات الإنسانية ، وفي محاولتها إدراك نفسها وإدراك العالم المحيط بها ، تحتاج إلى سيرورة تدليليـــة(السيموزيس) أو (وظيفة سميائية)كما يسميها يالمسليف[11]، تحول بها الوقائـــع الموجوده في العالم الخارجي إلى أشكال مضمونية ونسخ ثقافيـــة بديلة ذات طابع رمزي سميائي في الأساس .ومنه فإنّ إنتاج الدّلالة، في منظور بيرس ، لا يمكـــن تصوره خارج إطارالمســـار التّدليلي للسميوزيس القائـــم على إلزامية وجـــود علاقـــة التّرابط بين أداة التّمثيـــل وبين موضوعها في الخارج عبر أداة التّأويل التي تشتغل من خلالهـــا العلامة كعلامة، غير أنّ العلامة هنا ليستْ منتهية الدّلالة ، فالدّلالة المنتجَة ، بالنّسبة لشخصٍ ما ، عبر مُؤوِّل هى بدورها علامة بالنّسبة لشخصٍ آخر ، بمعنى أنها تخلق فى مُخيِّلته علامةً موازية ، أو ربما علامـــة أرقى من الأولى ، وتشكّل علامةً جديدةً بالنّسبة لشخـــصٍ ثالثٍ وهكذا تستمرّ هذه السيرورة مُعبِّـــرة عن عملية تأويلية غنيّة قد لا يكون لها نهاية تحدهـــا .فالمؤول ، بهذا الاعتبار وكما يعتقده بيرس ، لا يمثّل عنصـــرا مشكّلا للبناء الداخلـــي للعلامة فحسب ، بل إضافـــة إلى ذلك هو علامة أخرى ، تحتاج إلي تمثيـــل آخر يكون سببا في إيجاد علامة أخرى توجِد بدورهـــا مؤولا آخر، ومن شأن هذا الانتقال من مؤول إلى أخر داخل نسيـــج السميوزيس اللامتناهية ، سواء خصّ ذلك مستوى التقرير أو كان على مستوى التأويل ، أن يكسب العلامة معرفة خاصـــة أرقى من تلك التي مثّلت نقطـــة البداية بالنسبة لهذه السيرورة التّدليلية .

ويجب الاحتراس، هنا، من الخلـــط بين المؤوِّل والتّأويل، فالمؤوِّل وإنْ كان مرتبطاً بالتأويل، إلاّ أنّه لا يمثّل سوى نقطة بدايته ومنطلقه إلى عالمٍ منفتحٍ على كثير من الاحتمالات في محاولة منه إلى الإمساك بخيـــوط الدّلالة والدفع بها إلى الاستقرار والتّوقف عند نقطـــة أخيرة هي خاتمـــة لسيرورة تأويلية يتكفـــــل بها مؤوِّل ثالث يُطلق عليه المؤوِّل المنطقىالنّهائى. والمـــؤوِّل (

interpretant)، على عكس فعل التّأويـــل (interpretation) ،لا يحتـــــاج ذات مؤولـــة(interpreteur) تقوم بالتأويل، ولا يقتضي سياقا خاصاتحيَّن وتحقق بواسطته القيم المجردة .

وبالرّغم من أنّ عملية التمثيل العلاميتستند إلىالوقائع الموجوده في العالم الخارجي كونها أصل الإحالة ومرتكزها ، إلاّ أنّ الملاحظ عليها أنّها غير قادرة أن تعكس كلّ جوانب الواقعة ولا تستطيع ، من خلال إحالة واحدة ، أن تستحضـــر كل المظاهر المعرفية التي تتوفّرعليها الواقعـــة .فالعلامة، بهذا الشّكل ، لا تنوب عن موضوعهاوتستوعبه من كل الجوانب ،وبالتّالي يبقىتمثيلها لواقعة ما تمثيـــل جزئي .[12]ولعل ذلك ما يجعـــل من موضوع التّمثيـــل ، بحكم نوع الممارســـة الإنسانية ، كيانا يكبر العلامة و يتجاوزهـــا ، بل إن العلامة ، في محاولاتها اليائسة لاستيعابـــهبجميعجزئياته ، لا تقوى على أكثر من عرضعا لجزء بسيط مما يشكّل هيكله وبناء جسده .

ولما كان من ميزات العلامة قصورها عن استيعاب جميع ما يوفره الموضوع من مكوّنات ، كانت الحاجة ماسّة إلى إحالة متجدّدة تبحث استيفاء كلّ عناصر الموضوع واستدعاء بقيّة أجزائه التي تسرّبـــت عن الإحالة السّابقة ، تلك الإحالة المتجـــدّدة هي بمثابة تشكيل جديد للواقعـــة يدفع إلى قراءتهـــا وتأويلهـــا.

والضّرورة تقتضي ، على هذا الأساس ، التفريقبين موضوعين للعلامة ؛ ما تحيل إليه العلامة بشكل صريح مباشر يكتفي بإنتاج الدلالة (تقديم معلومات أولية خاصة بموضوع ما)اعتمادا على معطيات مباشرة ذات طبيعة تقريريةهي ما يشكل الوجود الأصلي للعلامة(الموضوع المباشر)، وما توحي به العلامـــة من دلالاتوقيم تدرج الفعل الإنساني ضمن وضـــع تداولي خاص ينضافإلى التعيين الأولي البسيـــط لفعل التمثيـــل ذاته في سيرورة تأويلية شاملة منفتحة على كل الاحتمالات الممكنةقد لا تنتهيعند حد بعينـــه (الموضوع الديناميكى).[13]

هذا يعني أنّ العلامة تكتنفها سيرورتان متقابلتان لكنّهما متكاملتان في الآن ذاته « سيـــرورة أولى متولّدة من القواعد الداخلية للغة . ومن هذه القواعد تأخذ اللغة معاييرها في الممارسة. و سيرورة ثانية متولّدة عن الشـــروط التاريخية الملموســـة الراعية للممارسة الدّالة ، وهي التي تشكـــل – على المستوى اللساني – مجموع الإكراهات والمفارقات والمعايير الخاصة بهذه الممارسة ». (14)

وهذه الإحالة المزدوجة التي تسم العلامة هي ما يجعل من القراءة تنقيباً مستمرّاً عن الأشكال الدلالية الضّمنية المتخفّية وراء الدلالات التّقريريـــة المتحقّقة مباشرةً .وهذا ما نودّ التّوقف عنده وقفة متأنيةفي مداخلتنا هذه .

ذكرنا أن ما يمكن أن تُفضي إليه العلامة ، من خلال إدراكها لذاتهـــا في بعدها التقريري الأولي ، هو إنتاجها لدلالة صريحة لا تتجاوز حدود تعيين تجربة تعكس حالة أولية للإدراك منفصلة عن أي سياق ترتبط به غير ارتباطها بعناصرها الدّاخلية ،وهذا ما يسميه بيرس بالمؤول المباشر [15]

فالمعنى في هذه الحالة يكتفي بإنتاج وحدات قيميّـــة من طبيعة تعيينية تحدده المادة الأولية المتمثّلة في " العلامة " ذاتها من خلال عناصرها التي تمثل الرّكائز الأساسيـــة التي انبنت عليها مقولة السميوزيس، السيرورة المنتجـــة للدلالات ، حينها يقوم الماثول بفعل الإحالـــة ، عبر المؤول ، إلى موضوع يقع خارجه إحالة نفعية صريحة مرتبط بتلبية حاجات حياتية أولية يتطلبها البقاء في الحياة ، تدرك من خلال لحظة الإحالة الأولى إدراكا لا يتجاوز حدود الإشارة إلى ما هو معطى وما يقتضيه فعل الإدراك المجسد في واقعة ما ولا يقتضي سوى حضور عناصر التجربة المشتركة.

إنّ هذا المستوى التّقريـــري الأوّلي من الدلالة لا يخص علامات النّظام اللساني التّواصلـــي فحسب ، بل يتّسع لكل ما يفيض به السلـــوك الإنساني من الظواهر الثّقافية الأخرى كالإيماءات والطقوس والمعتقـــدات واللّباس وما إليها ، وفي هذا المستوى يكتفي الفعل التدليلي برصـــد الدلالة التقريرية المباشرة فى الممارسة الإنسانيـــة ، والمراد بالدلالة التّقريرية لسانياً « قدرة العلامة على الإحالة إلى نوع معيّن من الأشياء، يشكل كلّ الملامح المعنوية التي تسمح بتسمية مرجع ما (فعل التسنين) والتعرف عليـــه (فك التسنين)، بمعـــنى الوقوف على مجمـــوع الوحدات ذات الطابع التعريفـــي الخالص».[16]

وبهذا الشّكل فإن الدّلالة التّقريرية ، وبخاصة إذا تعلّق الأمر ب بالنسق الدّلالي لـــ" اللّسان " كونه يمثّل أرقى الأنساق الدلالية الإبلاغية ، وجب أن يُنظر إليها باعتبارها، من جهة ، معنى أساسيا داخـــل الحدث التّواصلي ، فالتواصل لا يمكنـــه أن يتحققدون وجود نواة دلاليّـــة تقريرية ثابتـــة مباشرة ومشتركـــة يتوزعها عناصر المجموعة اللّغوية الواحدة ، وباعتبارها تشكل القاعدة المركزيـــة والمنطلق لكل الدّلالات العرَضية الثانويّـــة المضافة التي تزاد للعلامة اللّسانية فتشكل ذاكرتها التاريخية لاحقا، من جهة ثانيـــــة .

يفهم من ذلك أنه يستحيل الإقرار صراحة بوجود ظاهرةٍ تدلّ دلالةً واحدةً وحيدة ، فتصوّر مدلول نهائي كلّي وثابت منـــافٍ لطبيعة المعنى في ذاته،ومن هذه الزّاويـــة وجب التّسليم بوجود مستوى دلالي آخر ينطلق من الدّلالة النّـــواة ا لمشتركة إلى ضروبٍ من المعاني والمسارات التّأويليـــة الموصوفة بانغماسهـــا وحفرها في أعماق الخصوصية لارتباطها بسياقٍ ثقافيٍ تـــؤوَّل عبر هو يمنحها كامـــل دلالاتـــه.

فالانفصال ، على هذا ، بين المستويين ؛ مستوى الإحالة التّقريرية ومستوى الانفتاح التّأويلي غير ممكن ، فليس صحيحا تخيّل وجود فعل تأويلي مستقل لا يعترف باتّكائه إلى دلالة تقريرية سابقة خاصة بالمستـــوى الأوّلي (مستوى التسنين) تمثل الحد المعنوي الأدنى تضمن له سلامة هذه الحركة التدليلية و تضمن قدرتها على إنتاج الدلالات المتنوعـــة ،فالإحالة أي (سيرورة السميوزيس) كما يتصورها إيكو ، يجب أن تؤدي إلى إغناء نقطة الانطلاق لا إلى نفي أية صلة بها .إن النّشاط التأويلي فعل كلي يبدأ في الاشتغـــال انطلاقا من مدلول أولي لا يتجاوز حدود الاستجابة للبعد النفعي خلّفته الإحالة المباشرة التي بلورتها الممارسة الإنسانية منفتحاً على كونٍ من الإيحاءات والدلالات الإضافيـــة التي تتجاوز الوظيفـــي والاستعمالي وما تقدّمه العلامة بطريقة مباشرة مكوِّنة منبعاً للتوالـــد الدّلالي والمسيرات التأويلية اللامتناهيـــة ، و« التأويل اللامتناهي ، عند بيرس ، حال ممكنـــة . »[17] وفي هـــذه الحالـــة تدخل الذات المؤولة (القارئ)كضرورة ملحة تقتضيهـــا عملية إنتـــاج الدّلالات المتنوعـــة.

إن الوعي بهذا المستوى الدلالي الثاني الذي هو " التأويل " ، وخصوصاً في مجال السميائيات التأويليـــة المنبثقة من فكر بيرس الظاهـــراتي وتسنين أمبرتو إيكو ويوري لوتمان وغريمـــاس السردي والثقافي ومن ورمزية كاسيرير و سميولوجيـــا بارث، والإقرار بوجوده والنّظر إليه باعتبارها نشاطـــا معرفيا بالغ الأهمية والخصوصية ، هو بحق إدراك لأهميتـــه في تحديد الوعي النقدي وإضاءة جوانب العمل الأدبي من أجل فهم أفضل للتراث الإنساني قديمه وحديثه ، من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى ورصد أبعاده وغاياته وسبل تداوله وتلقيه.

فهو آلية نقدية مرنة تقترب من مختلف تجليات السلوك الإنساني ، بدءاً بأبسط الانفعـــالات وانتهاء بأكبر الأنساق الإيديولوجية ، بوصفها خزاناً من الإمكانات الدّلالية ، في محاولة لفهمها فهماً يتجاوز حدود تعيين الدّلالة المباشرة للواقعة إلى الانخراط في البحث عن قيم دلالية منضوية في سياقات خاصّة تشكّل ما هو ثقافـــي . إنّه ، في الأخير ، حالة وعي فلسفي بإمكانـــه أن يتصرّف في الواقع باعتباره حالات رمزية ويستجلي أســـرار هو يعيد صياغته من جديد وفق صورٍ ثقافية واجتماعيـــة ودينية قابلة للتحقّق من خلال امتلاك المفاتيح الضرورية للتّأويـــل.

ولقد رأى أمبرطو إيكو أن عملية التأويل لا يمكنها أن تتمإلاّ بحسب واحدةٍ من الوضعِيَتيْن التّاليتيْن ؛ **وضعية** ترى في السيرورة التأويلية (السيميوزيس) فعلا حرًّا لا يخضع لأية مرجعية[18]بحيث تدخل فيها التّجربة القرائية مرحلة انفلات دلالي غير آبهة بأية ضوابط أوحدود ، «فمن حق العلامة أن تحدد قراءتها حتى ولو ضاعت اللحظة التي أنتجت ضمنها إلى الأبد، أو جهل ما يود الكاتب قوله»[19]

وفي هذه الحالة فإنّ التّأويل لا يهمه الوصول لأيـــة نتيجة محددة من شأنها أن تفسر النـــصّ المقروء،إنه مغامرة مفتوحة استُحضرت فيها كل التأويلات الممكنة حين انفصل النصّ عن لحظتـــه التّلفّظية الأولى ، و لم يعد وقتها مستنداً سوى إلى مرجعية معرفيـــة تفصل بين الدلالة المنبعثة من فعل العلامة كسيرورة تقدمها العلامة في إحالتهـــا المباشرة، وبين المعرفة التي تفيـــض بها المدلولات

التي يقترحها فعل التأويـــل بلا ضابط ولا حدود. فما يتوفر لدينا حينها من المعرفة«بعد أن يستنفـــد الفعـــل التأويلي كلّ طاقاته، لا علاقة له بالنقطة التي شكلت بداية التأويل؛ فبإمكان أية علامة أن تحيل على أية علامة أخـــــــرى، كما بإمكان أي شيء أن يشير إلى شيء آخـــــر » ، كما يقول الدكتور سعيد بن كراد .

فالاستمتاع بالنّص ، مادام يمثّل توليفا لتسنين بالغ التّنوع والتّعقيد، والاستلذاذ بقراءته يكون حينما تستمر مغامرته التّأويلية فلا تتوقّـــف عن الإحالات ، ولا تمتنـــع عن البوح بكلّ المخفيات ، وبالضّبط حين لا تنتهي عند دلالة بعينها، ويبقى النصّ وقتها ، وبحسب هذا المنطق ،أفقاً مفتوحـــاً لجميع التّأويلات على نحوٍ يجعل حدوده غير واضحة المعالم ، يستبعد كلّ محاولة تبحث تضييق مجاله الواسع ومحصارته وبوتقته في ركنٍ تنتهي إليها كل الدّلالات والتّأويلات .[20]

وهذا مذهب كثيرٍ من الاتجاهات التأويليـــة المعاصرة تأتي في مقدّمتها التفكيكيـــة التي تمنح المتلقي سلطـــات مطلقة لتصوّر الدّلالة ، تجعـــل من التأويل قراءة شعارهـــا لانهائية الفكر وبالتالي التحـــرّر من كلّ الضّوابط ، فلا تعترف ، في رؤيتهـــا التأويلية ، بأيّ دور للسياق ومقصدية النص والمؤلف ،غايتها الأساسية التّمتّع والتلذّذ بالسيرورة الإنتاجية وليس الوقوف فيها على دلالة بعينها ، حيث كل التأويلات والإحالات ممكنة حتى لو دفعت إلى إنتاج مدلولات متناقضة بعيدة عمّا يفترضه المنطق ويستوجبه العقـــل.

ولقد أشار إيكو إلى أنّ هناك أصولاً قديمة تعتبـــر قاعدة ومنطلقاً لكثيـــر من طروحات التأويـــل اللامنتهي، كالفكر الذي تبنته المدرسة الهرمسية التي تقبل بمختلف التأويلات حتى أكثرها تناقضا، بل إنّ الأمر ذهب بها أبعد من ذلك عندما أدارت ظهرها حتّى إلى أبسط مبادئ ومسلمات المنطق كمبدأ الهوية، ومبدأ عدم التناقض فقوّضتها وتجاوزتها و لم تبال بآثارهـــــــا،فتعاملت مع اللغة على أنّها شيء غامض، وبقدر ما تكون كذلك بقدر ما تكون غنية بالمعاني والدلالات ، مما يفتح المجال واسعا أمام التأويل فينطلق دون رادع ولا ضابط ودون أن تحدّه حدود إلى مختلف التّخمينات حتى أقصاها إسرافاً فلا يتوقف عند دلالة بعينها ترسم نقطة التّوقف لمسير تدليلي طويل في النّهاية .

إن الاحتفاء المطلق بلا نهائية التأويل هو المذهب المميِّز للمدرسة الهرمسية ، فهي تعتبر النص عالما مشرعا وأفقا تتلاقى فيه كل المتناقضات إلى درجة تؤدي بـــه في النّهاية إلى الاختفاء والذوبان هو في ذاتـــه.[21]

إنّ هذا الاسراف الهرمسي في التّأويل يمكن اعتباره نوعا من التّوالد الإيحائي المتكاثر بطريقة سرطانية ، كما يقول إيكو ، فهـــو ينطلق من علامة محددة إلى أن ينتهي إلى علامة لا رابطة بينها البتة وبين التي مثّلت نقطة الانطلاق . ففي كل مرحلة لاحقة مـــن التّأويل تنسى وتطمس العلامة السابقة ، فاللّذة كل اللّذة تكمن في الانفصال عن العلامة السابقة والانـــزلاق عنـــها إلى علامـــة جديدة.[22]

ضمن هذا السياق المعرفي وتوازيا مع المدرسة الهرمسية وفي نفس الفترة الزمنية تقريبا ظهرت مدرسة أخرى تتبنى نفس الطـــرح الباطني السابق ، هي المدرسة الغنوصيّـــة ، وبدورها حاولت أن تجيب على إشكالية التأويل من منطلق تعاملها مع النّصـــوص التي اعتبرتها فضاءات مفتوحة تقبل بأية قراءة مهما تطرّفت وتجاوزت الحدود ، أو هي آلة كسولة تقتضي من القارئ عملا مشـــاركا مجهـــداً لملء نسيج من الفضاءات البيضاء والفجوات والمسكـــوت عنه بتعبير أمبرتو إيكو [23]، ونظرتها إلى اللغة نظرة قاصـــرة تعتبرها عاجزة عن الإمساك بأية دلالة ، ومسرحاً لكثير من المتناقضـــات والمتاهات والانزلاقـــــات . [24]

تلك كانت الوضعية الأولى ، أمّا الوضعية الثانية ـــ دائما بحسب تصوّر إيكو ـــ فبالرّغم من تسليمها المبدئي بأن السميوزيس لامتناهية في الزمان وفي المكان وبانفتاحهـــا على مختلف التّأويلات وتعدّديتها بحكم طبيعة الفكر الإنساني ذاته، إلاّ أنّ الحاجات الإنسانيـــة تقلص من حجمها وتفرض عليها حدودا تجعلها ترتكن إلى مرجعيات وضوابط تحجِّم من غلواء تجاوزاتها ونتوءاتها و انزلاقاتهـــا المغرقة في الذاتية وانفلاتها خارج كل الغايات والمقاصد التي تمثل عامل تصفيـــة وانتقاء من خلالها قد نرضـــى ونقبل بمسار تأويلي بعينه وندفع بالمســـارات الأخرى إلى التراجع ، أو قد نرضى بهـــا في واقعة خطابية مخصوصة وضمن شروط

مخصوصة ونستبعدهـــا في واقعة أخرى وضمن شروط أخرى ، وهذا يعنـــي أنّ« التأويل ليس نتاج بنية الذهن البشري، بقدر ما هو نتاج لواقعٍ تقيـــم دعائمـــه السميوزيـــس».[25]

وبإمكاننا الآن ، ووفق هذا الطرح ، أن نقول بتناهي السيرورة التأويلية من حيث التجسيد الفعلي ، فهي في تحققها العملي فعل خاص محكوم باستراتيجيـــة وبسياقات خاصة[26]وتلوينـــات ثقافية تسعى إلى الوقـــوف على الكيفيـــات والأشكال التي يتم بواسطتها بناء المعنى وتنظيمه في ثنايا وقائع ملموسة مشخَّصة تخرجه من تجريديته وزمانيته ومكانيته المطلقتين دافعة به إلى التداول في أفعال وسلوكات مخصوصة محددة في الزمان والمكان . [27]يقول إيكو : « فعالم السميوزيس عالم دائـــم التطور، وافتراض بنيات لهذا العالم لا يعني القول إنه عالم قـــار وثابت ، إن الأمر يتعلق فقط بالتعرف على الميكانيزمات البنيوية التي تحكم تحولاته.»[28]

فالنّص ، بهذا الحـــال ، ورغم احتماله لكثير من التّأويلات ، إلاّ أنّـــه يمتلك مجموعة مـــن **التّوجيهـــات الازمة** تقود، في ظل شروطٍ لسانيةٍ وتداوليةٍ محددةٍ بمرجعياتهـــا وقوانينها الذاتية ، إلى قراءاتـــه المسموح بها ، يقول إيكـــو : «إن التأويل ـــ من هذا المنظـــور ـــ ليس فعلا مطلقا بـــل هو رسم لخارطة تتحكم فيهـــا الفرضيات الخاصة بالقـــراءة، وهي فرضيات تسقط انطلاقـــا من معطيات النّـــص ...»[29]

وبناءً على ذلك ، وجب على القارئ أن يكون ملتزماً نصيّاً أو كما أراده إيكو أن يكـــون قارئاً نموذجيّاً ، بمعنى أن ينظر إلى النص انطلاقاً من تلك الموجِّهـــات التي تضمن اللقـــاء بين مقصديته ومقصدية النص ، فالنص يرسم استراتيجيته الخاصة ، ومتلقيه هو الآخر يكون مزوّداً باستراتيجيـــة معينة يواجه بها شفرات النص ، وبهذه الكيفية يضمن للنّص تأويلاته المشروعة . [30]يقول راستيي : « إن المعنى، حتى ولو تعلق الأمر بأبسط المستويـــات الدلالية، هو نتاج عمليات تأويلية محكومة باستراتيجية.»[31]

إن الممارسة التأويلية المنضبطة تحـــاول، قدر الإمكان ، إرساء السيرورة التّدليلية وتثبيتها ضمن سياق بعينه يكـــون هو الهدف والغاية مـــن سيرورة تأويلية بأكملهـــا تنطلق من نقطـــــة تُحدَّد خلالها معطيـــات بدْئية(مؤول مباشـــر)تولِّد زخماً من المعـــاني الكثيفة(مؤول ديناميكـــي)، إلى توقّفها عند دلالة تستقر عليها هي المؤول النهائـــي (interpretantfinal) أو العادة ،كما سماهـــا بيرس ، أوجدها ذلك السياق الخاص ذاته ، التي تتحول مع الزمن إلى مقياس وقانون يستمد منه الفعل المتحقق كينونتـــه، يقول بيرس : « إن السميوز في هروبها اللامتناهـــي من علامة إلى علامة ومن توسط إلى توسّـــط ، تتوقف لحظة انصهارها في العادة ، لحظتهـــا تبدأ الحياة ويبدأ الفعل .»[32]بهذا الشّكل تكـــــــون لممارسة التأويلية قادرة على تحيين المضمون الفكـــري الناتج عن فعل الإدراك وصبّه في قالب تداولي تنتهي إليه كلّ التأويلات الممكنـــة .

إنّ ما كان يبدو أفقا لا متناهيا ولا محدودا من الإحالات في مسيرة السيميوزيـــسالتّدليلية يتحول في لحظة ، من خلال المؤول النهائي ، إلى شكل نهائـــي تنتجه الممارسة الإنسانية وتضبطه بقوانين محدّدة تنظّم نوع الإحالة وتدرجهـــــا في منطق خاص على شكل سلوك عام يُحتَكم إليه وتُقاس عليه جميع النّسخ المتحققة . فالعلامة ، بهذا الشّكـــل وبجميع مكوّناتها الدّاخلية وسيرورتها التّدليلية ، لم تعد تتمتع بأي قيمـــة مطلقة بقدر ما أصبحتْ تتمتّع بسيـــاق خاص يحدد لها شكلها الدّلالي الذي ستستقر عليه نهائياً وتشكل به إطاراً لكل سلوك فردي خاص . وتلك هي العادة التي تتطور انطلاقا من حالة فردية منعزلة إلى قاعدة عامة.

ولنا في التراث العربي وتحديدا فيمـــا خلّفة **عبد القاهر الجرجاني** ما يمكن أن يشير إلى مفهوم توزّع العلامة ، في سيرورتها التّدليلية ، بين الإحالة التّقريريـــة من جهة ، والانفتاح التأويلي من جهة أخـــرى . ففي أثناء تصديه لقضيـــة " المعنى " و " معنى المعنى " أشار إلى أن الكلام على ضربين : « ضربٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصـــــدت أن تخبر عـــن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة ، فقلت : خرج زيد ، وضربٌ آخر أنت لا تصـــل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعـــه فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالةً ثانيةً تصل بها إلى الغـــرض ... وإذْ قد

عرفت هذه الجملة ، فههنا عبـــارة مختصرة وهى أن تقول: "المعنى " ، و " معنى المعـــنى " ، تعنى بـــ " المعنى "؛ المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة، وبـــ " معنى المعنى "؛ أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر. »[33]

فما يفهم من قول عبد القاهرأنّ الدلالة المدركة مباشرة من الواقعة دون الحاجة إلى ما يعضدها من خارجها تسمّى " المعنى " (الدلالة التقريرية) ، في حين تسمى الدلالات غير المدركة بشكل مباشر والتي تحتـــاج إلى واسطة " معنى المعنى " (الدّلالة التّأويلية / الإيحائية) ، وهي دلالات ثانية يُتوصّل إليها عن طريق الحفر في ذاكرة الواقعة الثقافية والتاريخية وإرغامها على البوح بكامل أسرارها .

وفي الأخيريمكننا القول إنّ العلامة لا يمكنها أن تتوقف عند إحالة واحدة تكون تعيينا لمعرفة معطاة بشكل نهائي (دلالة تقريرية مفردة ضمن كون من الإمكانـــات الأخرى الممكنة) ، بل هي سلسلة من الإحالات تسلم نفسها لحركية تأويل طويلة قد لا تنتهي نظريا عند نقطة دلالية بعينها (لا ناهئيةالسميوزيسالمبررة لحركية العلامة والضامنة لاشتغالها) ، إلا أن المنطق السياقي التّداولي الخاص الذي تحيّن ضمنه وفق الحاجات الإنسانية النفعية يقود السميوزيس إلى التّوقـــف لحظتها لانتقاء دلالة نهائية والاحتفاء بها وتفضيلها على جميع الدلالات الأخرى (مؤوِّل نهائي) .

هوامـــش المـــقال:

(1)كما يقول جريماس، ينظر:العلامة؛تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو، تر: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1 ، 2007 ، ص: 203 .

(2)Voir: Molino, Jean (1989): Interpréter, in l'interprétation des textes, ed. Minuit, p. 32 .

(3)Cassirer,Ernest (1975): Essai sur l'homme , éd. Minuit, p. 43 .

(4)Voir: Cassirer,Ernest (1972): Philosophie des formes symboliques , éd. Minuit.

(5)التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: الدكتور سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الطبعـــة الأولى 2000، ص: 148.

(6)Voir:Greimas, A. J. (1966): Sémantique structurale, éd. , Larousse , Paris,p.5.

(7)السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص: 18.

(8)Greimas , A. J. , Courtès , J. ,signification.

(9)ينظر : السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، ص: 175.

(10)السيميائيات أو نظرية العلامات، جيرار دولودال، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاذقية، ط1، 2004 ، ص: 95.

(11)السابـــــق .

(12)Umberto, Eco (1985): Lector in fibula , ed. Grasset, p . 33 ,36

(13)ينظر:السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، ص: 175.

(14)Carontini , Enrico : Action du signe , p . 29.

(15)Peirce , C. S. : Ecrits sur le signe , p . 128,189.

(16)Orecchioni-Kerbrat , Catherine (1977): La connotation , éd. P U L,p . 12

(17)Umberto, Eco(1990),les limitesde l'interprétation: ed .grasset , paris,p. 378 .

(18)ينظر:التأويل بين السميائيات والتفكيكية، أمبيرتو إيكو، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، 2000، ص: 132 .

(19)السابـــــق .

(20)أمبرتو إيكو والتأويل اللانهائي، الحسن المختار، مجلة البيان، الإمارات، العدد 64 ، أبريل 2001 ، ص: 64 .

(21)ينظر: السابـــق، ص: 65 .

(22)Voir:Umberto, Eco,les limitesde l'interprétation: p.373.

وينظر كذلك: سيمياء التأويل ـــ الحريري بين العبارة والإشارة ـــ، رشيد الإدريسي؛ شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى (2000)، ص: 22- 23 .

(23)القارئ النموذجي ، أمبرتو إيكو، ترجمة أحمد بوحسن، مجلة آفـــاق، اتحاد كتاب المغرب، ع 7-8 ،1988،ص: 140.

(24)ينظر: أمبرتو إيكو والتأويل اللانهائي، الحسن المختار؛ مرجع سابق ، ص: 66 .

(25)Umberto, Eco: les limites de l'interprétation, p . 382.

(26)ينظر: السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، مرجع سابق، ص:157.

(27)ينظر:شخصيات النص السردي ــ البناء الثقافي ــ ، سعيد بنكراد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس،1999 ، ص: 67.

(28)Umberto, Eco:Le signe, ed. Labor, 1984, p. 133 .

(29)التأويل بين السميائيات والتفكيكية، أمبرتو إيكو، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى،2000، ص11:.

(30)القارئ النموذجي، أمبرتو إيكو: مرجع سابق، ص : 141-142 .

(31)Rastier, F (1987): Sémantique interprétative , éd P U F, Paris, p. 12 .

(32)See:Umberto, Eco: Lector in Fabula, p . 87-112,et voir aussi :
Everart-Desmedt , Nicole : Le processus interprétatif , introduction à lasémiotique de C. S. Peirce, ed. Mardaga , p. 42 .